لله . بل إن مجرد توهم العبد بأن هناك شريكا يجعل الله رافضاً لعبادة العبد المشرك . لذلك يقول فى الحديث القدسى : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشركه» . ومادام ربنا قد تنازل عن رعايته له فليتلق المتاعب من حيث لا يدرى .

ومن قوله تعالى :

﴿ من يضلل الله فلا هادى له ﴾

نتبين أنه حين يحكم الله بضلال إنسان أو بهداية آخر فلن يستطيع البشر أن يعدِّل على الله ، ليجعل شيئاً من ضلال هو هدى ، أو شيئاً من هدى هو ضلال .

كما يتضح من تلك الآية الكريمة أن من فى قلوبهم مرض يزيدهم الله مرضاً ويتركهم فى طغيانهم يعمهون ، والعمه هو فقدان القلب للبصيرة ، والعمى هو فقدان العين للبصر .

ويقول الحق - تبارك وتعالى - بعد ذلك :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾



والمسئول هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسائل إما هم اليهود الذين سألوه عن الساعة ، وعن الروح ، وعن ذى القرنين ، فكان الجواب منه مطابقاً لما عندهم فى التوراة لأنهم ظنوا أن الكلام الذى يقوله محمد إنما يأتى منه جزافاً

بدون ضابط وليس من رب يُنْزِلُه. فلما أجاب بما عندهم فى التوراة، علموا أنه لا يقول الكلام من عنده، ولذلك سألوه أيضاً عن أهل الكهف وما حدث لهم، وكانوا جماعة فى الزمن الماضى، واتفقوا معه على كل شيء حدث لأهل الكهف إلا على الزمن فنزل القرآن يحدد هذا الزمن بقوله سبحانه :

﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فقال اليهود : الثلاثمائة سنة نعرفها، أما التسعة فلا نعرفها، وما علموا أن الحق سبحانه وتعالى يؤرخ لتاريخ الكون بأدق حسابات الكون لأن ربنا هو القائل :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة التوبة)

إذن التوقيتات كلها حسب التوقيت العربى، ونعلم أن الذين يريدون أن يحكموا التاريخ حكماً دقيقاً فهم يؤرخون له بالهلال، والمثال أن كل عَالِم البحار تكون الحسابات المائية فيها كلها بالهلال، لأنه أدق، وأيضاً فالهلال آية تعلمنا متى يبدأ الشهر، ولا نعرف من الشمس متى يبدأ الشهر ؛ لأن الشمس دلالة يومية تدل على النهار والليل، بينما القمر دلالة شهرية، ومجموع الاثنى عشر هو الدلالة السنوية. لكنهم لم يفطنوا إلى هذه، وأخذوها على الثلاثمائة سنة بالحساب الشمسى، وأضاف الحق : ﴿. وازدادوا تسعا ﴾ لأنك إن حسبت الثلاثمائة سنة الشمسية بحساب السنة القمرية تزداد تسع سنين.

ومادة السؤال فى القرآن ظاهرة صحية فى الإيمان ؛ لأن الإيمان إنما جاء ليحكم حركة الحياة بـ « افعل » و « لا تفعل »، وساعة يقول الشرع : افعل، ففى ظاهر هذا الفعل مشقة، وساعة يقول : لا تفعل ففى ظاهر هذا الطلب أنه سهل ومرغوب، والمنع عنه يناقض شهوات النفس. وللتأكد من أن الأسئلة ظاهرة صحية من المؤمنين نجد أسئلة كثيرة موجهة لرسول الله من أمته، حكاها القرآن بصور متعددة، ورد السؤال مرة بفعل مضارع مثل قوله : « ويسألونك » ؛ ومرة

ورد بصورة فعل ماض « وإذا سألك ». وكثيراً ما جاء السؤال بهيئة المضارع « يسألونك »، لأن المضارع يكون للحال وللاستقبال.

وجاءت الأسئلة بالقرآن فى صيغة المضارع خمس عشرة مرة، وجاءت بصيغة الماضى مرة واحدة. وإن نظرت إلى الخمس عشرة مرة تجد كل مرة منها جاءت لتبين حكماً. وإذا نظرنا إلى مادة الفعل « يسأل » فى القرآن وبترتيب المصحف، نجد القرآن يقول:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة البقرة)

ويقول سبحانه:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾

(من الآية ٢١٥ سورة البقرة)

ويقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾

(من الآية ٢١٧ سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

ومرة أخرى يقول فى ذات الآية السابقة:

﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ﴾

(من الآية ٢٢٠ سورة البقرة)

ويقول عز وجل :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾

وبعد ذلك فى سورة الأعراف يقول :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة الأعراف)

وأيضاً يقول سبحانه :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ﴾ (من الآية ١٨٧ سورة الأعراف)

ثم يقول الحق :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (من الآية ١ سورة الأنفال)

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ (من الآية ٨٥ سورة الإسراء)

ويقول المولى سبحانه :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويقول الحق :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة طه)

و يختم هذه الأسئلة بقوله :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة النازعات)

تلك هى خمس عشرة آية جاء فيها الحق بقوله « يسألونك »، وآية واحدة يقول فيها الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾

(من الآية ١٨٦ سورة البقرة)

والآيات الخمس عشرة التى جاء فيها الحق بصيغة المضارع « يسألونك » نجد كل جواب فيها مُصدرا بـ « قل » وهو أمر للرسول : قل كذا، قل كذا، ولكن فى الآية الواحدة التى جاء فيها بصيغة الفعل الماضى و « إذا سألك »، لم يقل : فقل إنى قريب، بل قال : « فإنى قريب أجيب دعوة الداع »، لأن الله يعلم حب محمد لأمته، وحرصه عليهم ولذلك يقول :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ويقول سبحانه :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾

(سورة الكهف)

ولذلك حين علم الحق علم وقوع : أن رسول الله مهتم بأمر أمته ومشغول بها وحريص على أن يشملها الله بمغفرته ورحمته وألا يسوؤه فيها، أخبره المولى عز وجل بأنه سوف يرضيه فى أمته. وقد ورد فى الحديث ما يؤيد ذلك، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم صلى الله عليه وسلم ﴿ ربِّ إنهنَّ أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾

وقول عيسى صلى الله عليه وسلم : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفرلهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (فرفع يديه فقال : أمتى أمتى وبكى فقال الله عز وجل : ياجبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فَسَلْهُ ما يبكيه ؟ فأتاه جبريل فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله تعالى : ياجبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك) (١)

وتأكيداً لعلم الحق تبارك وتعالى من حرص رسو له على أمته، أراد أن يكرم هذه الأمة من نوع ما كرّم به الرسول، فجاء الخطاب فى آية الدعاء بدون «قل».

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾

(من الآية ١٨٦ سورة البقرة)

وأراد الله أن يبين لمحمد ولأمته أن الله يعلم لا بما تسألونه فقط، بل يعلم ما سوف تسألونه عنه. لذلك نجد أربع عشرة آية تأتى فيها « يسألونك » وتكون الإجابة « قل »، والآية الخامسة عشرة جاء فيها « يسألونك » وكانت الإجابة «فقل» لتدل « الفاء » على أن السؤال لم يقع بعد، فكأن الفاء دلت على شرط

(١) رواه مسلم

مقدر هو : إن سألوك فقل ينسفها ربى نسفاً ، وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و« يجلّيها » أى يُظهرها ، وهناك ما يسمى « الجلوة » وما يسمى « الخلوة » ، و«الجلوة» أن يظهر الإنسان للناس ، و«الخلوة » أن يختلى عن الناس ، و«لايجليها» أى لا يظهرها ، و« لوقتها » ترى أنها مسبوقة باللام ، ويسمونها فى اللغة العربية « لام التوقيت » ، مثلما يقول الحق سبحانه :

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الإسراء)

وهى بمعنى « عند » ، ومعنى دلوك الشمس ، أنها تتجاوز نصف السماء ، وتميل إلى المغرب قليلاً . وقوله : « لا يجليها لوقتها إلا هو » أى لا يُبيِّنها عند وقتها إلا هو سبحانه وتعالى .

﴿ ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ﴾

والثقل يعنى أن تكون كتلة الشىء أكبر من الطاقة التى تحمله ؛ لأن الكتلة إن تساوت مع الطاقة فهى لا تثقل على الحمل .

أو أن الطاقة التى تحمل لم تقدر على جاذبية الأرض ؛ فيكون الشىء ثقيلاً ، وقد يكون هذا الثقل أمراً ماديا ، كما يحمل الإنسان - مثلاً - على ظهره أردباً من القمح فيقدر على حمله ، لكنه إن زاده إلى أردب ونصف ، فالحمل يكون ثقيلاً على ظهره لأن طاقته لا تتحمل مثل هذا الوزن « فينخ » به .

﴿ ثقلت في السموات والأرض ﴾

والثقل لا يكون مادياً فقط، بل هو ثقل فكرى وعقلى أيضاً، مثال ذلك حين يقوم الطالب بحل تمرين هندسى أو تمرين فى مادة الجبر، فالطالب يشعر أحياناً أن مثل هذا التمرين ثقيل على فكره، وصعب الحل فى بعض الأحيان.

وقد يكون الأمر ثقيلاً على النفس فى ملكاتها، مثل الهم جاثم على الصدر وثقيل عليه، وهو أقسى أنواع الثقل، ولذلك فالشاعر القديم يقول:

ليس بحمل ما أطاق الظهر

ما الحمل إلا ما وعاه الصدر

إذن هناك ثلاثة أثقال: ثقل مادى، وثقل فكرى، وثقل نفسى.

و﴿ ثقلت فى السموات ﴾، ونحن نعلم أن السموات فيها الملائكة. ونعلم أن الملائكة أيضاً لا تعرف ميعاد الساعة، ولا يحاول معرفتها إلا الإنسان بشهوة الفكر، أما الملائكة فهى ليست مكلفة لأنها لا اختيار لها، وبعضها يخدم البشر، وهم الملائكة الذين سجدوا لآدم وهم الموكلون بمصالحه، وبحياته، وقد رضخوا لأمر الحق بأن هناك سيداً جديداً للكون. فكونوا جميعاً مسخرين فى خدمته، وهم الملائكة الحفظة الكرام الكاتبون، ولهم إلف بالخلق، إلف كاره للعاصى، وإلف محب للطائع. ومن يسير على منهج الله من البشر يفرحون به. وإن وقع من الطائع زلة، يأسون له ويتمنون ألا تقع منه زلة أخرى. ومن يسير ضد منهج الله يغضبون منه، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفاً»(١)

ونعلم أن المنفق سيأخذ ثواب إنفاقه، أما الممسك فإن تلف ماله وصبر عليه فهو أيضاً ينال ثواباً عليه. وهكذا تدعو لنا الملائكة.

(١) رواه الدار قطنى فى سننه.

و« ثقلت » هنا تعنى أن ميعاد الساعة لا يعرفه إلا ربنا، فلا يعرف ذلك الميعاد من هم فى السموات وكذلك من هم فى الأرض، وكل من على الأرض خائف مما سوف يحدث لحظة قيام الساعة، وخصوصاً أن المصطفى صلى الله عليه وسلم، يعطى لها صورة توضح قوله الحق:

﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾

ويخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالحالة التى تأتى عليها فيقول: « إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقى ماشيته والرجل يقيم سلعته فى السوق والرجل يخفض ميزانه ويرفعه »(١)

ومثل هذه التوقعات تخيف.

وقوله الحق:

﴿ ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ﴾

أى أن الواقع فى هذا اليوم يكون فوق احتمال البشر وهو يأتى بغتة، أى يجىء من غير استعداد نفسى لاستقباله. ويتابع سبحانه:

﴿ يسألونك كأنك حفى عنها ﴾

وحفىَ من الحفاوة، والحفىّ هو المُلحُّ فى طلب الأشياء، مثل التلميذ الذى يتوقف عند درس لا يفهمه، فيسأل هذا، وذاك إلى أن يجد إجابة.

والحفى بالسؤال عن أمر يحاول أن يصل إليه، والحفى أيضا عالم بما يسأ ل عنه، وسبب العلم أنه ألحّ فى السؤال عليها.

والأمور التى يعالجها الإنسان إما أن يعالجها وهو مستقر فى مكانه كالأمور الفكرية أو العضلية الموقوتهَ بمكان، وقد يكون أمراً بعيداً عن مكانه ويريد أن

(١) رواه سعيد عن قتادة.

يعالجه، فيقطع المسافة إلى المكان الثانى لتحقيق هذه المهمة، إنما يمشى ويسعى على رجليه، و« يدوب » النعل الذى يضعه فى قدميه من المشى فيقال عنه إنه : « حافى ». ولذلك يقال: حفى فلان إلى أن وصل للشىء الفلانى، أى سار مرات كثيرة وقطع عدة مسافات، مزقت نعله حتى جعلته يمشى حافياً. وهنا يقول الحق على ألسنة القوم: ﴿ كأنك حفى عنها ﴾ أى أنك مُعْنى بها، ودائب السؤال عنها، وعارف لها.

وتأتى الإجابة من الحق:

﴿ قل إنما علمها عند الله ﴾

وفى ذات الآية سبق أن قال: ﴿ علمها عند ربى ﴾

والربوبية متعلقها الخلق، والرعاية بالقيومية لمصالح البشر، والألوهية متعلقها العبادة وتطبيق المنهج، وجاء الحق فى هذه الآية، مرة بالربوبية، ومرة بالألوهية. والأولى هى علة الثانية، فأنت أخذت الله معبوداً، وأطعته لأنه خلقك ووضع لك المنهج، ولا يدخر وسعاً بربوبيته أن يقدم للعبد الصالح كل شىء ويمنحه البركة، وكذلك يعطى الكافر إن أخذ بالأسباب ولكن دون بركة وبغير ثواب فى الدنيا أو الآخرة، لذلك هو الإله الحق الذى نتبع منهجه.

﴿ قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

وأكثر الناس الذين يسألون عن موعد الساعة لا يعلمون أن ربنا قد أخفاها، وسبحانه هو القائل:

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة طه)

هم إذن لا يعلمون أن علمها عند الله.

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ ﴾

ويقول الحق تبارك وتعالى على لسان رسوله : أنتم تسألونني عن الساعة ، وأنا بشر ، ومتلقّ فقط ، والإرسال بالمنهج يأتي من الله وأنا أبلغه ، ولا علم لي بموعد قيام الساعة ، ولا أملك لنفسي لا ضراً ولا نفعاً ، أي لا أملك أن أدفع الضر عني أو أجذب النفع لنفسي ، ولكن حين يسوق الله النفع أو يمنع الضر ، فالإنسان يملك ما يعطيه الله ، والعاقل حين يملك ، يقول : إن هذا ملك عَرَضي ، لا آمن أن ينزع مني . ولذلك قال لنا الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ ﴾

(سورة آل عمران)

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ﴾

أيْ أنَّ أحداً لا يملك شيئا إلا ما شاء الله أن يملكه ، ورسول الله من البشر . ويضيف :

﴿ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾

(من الآية ١٨٨ سورة الأعراف)

ومحمد صلى الله عليه وسلم لو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير، فقد حارب، وانتصر، وحارب وانهزم، وتاجر فربح، ويسير عليه ما يسير على البشر، ومرة يدبر الأمر الذى لم يكن فيه منهج من السماء، فمرة يصيب ومرة يخطىء. فيصحح له الله؛ لذلك يأتى القول على لسانه بأمر من الله: لو كنت أعلم الغيب لما وقعت فى كل هذه المسائل، وكان أهل رسول الله من قريش قد قالوا: إننا أقاربك، فقل لنا على موعد الساعة. حتى نستعد لملاقاتها.

ويتابع المولى سبحانه قوله: ﴿ وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾

وساعة ترى «إن» فهى مرة تكون شرطية مثل: «إن ذاكرت تنجح»، ومرة تكون للنفى وتجد بعدها اسما، والمعنى: ما أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون. والكلام موجه إلى المؤمنين لأنهم هم الذين ينتفعون بالنذارة وبالبشارة، وما يُنذروا به لا يفعلوه، وما يبشروا به يفعلوه.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

وقوله تعالى: «خلقكم من نفس واحدة» المقصود بها آدم، وقول الحق: «وجعل منها زوجها» المقصود بها حواء، ونلحظ فى الأداء فى هذه الآية أن الضمير عائد إلى مؤنث.

﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ﴾

ثم جاء بالتذكير فى قوله : ﴿ ليسكن إليها ﴾

إذن فصل الذكورة عن الأنوثة جاء عند « ليسكن ». فكأن الكلام فى النفس معنىٌّ به جنس بنى آدم وهو الذى نسميه « الإنسان » ومنه ذكورة ومنه أنوثة، ولذلك فسبحانه حينما يتكلم عن الذكورة كذكورة، والأنوثة كأنوثة، يأتى بضمير المذكر، أو بضمير المؤنث، وقوله : ﴿ ليسكن إليها ﴾

لأنه يريد أن يوضح أن المرأة جُعلَت للرجل سكناً، لا يقال : إنها له سكن إلا إذا كان هو متحركاً، كأن الحركة والكدح فى الحياة للرجل، ثم يستريح مع المرأة ويسكن إليها بالحنان، بالعطف، بالرقة. أما إن لم تكن سكناً فهو يخرج من البيت لأن ذلك أفضل له. وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وجعل منها زوجها ﴾

يذكرنا بما عرفناه من قبل من أن الله خلق آدم من الطين ومن الصلصال ثم نفخ فيه ربّنا الروحَ، أما حواء فقد ذكرها فى هذه المسألة، وأوضح : أنا جعلت منها زوجها، و« منها » أى أنها قطعة منه، وقيل : إنها خلقت من ضلع أعوج، ومن يرجح هذا الرأى يقول لك : لأن الله يريد أن يجعل السكن ارتباطاً عضويا، فالمرأة بعض من الرجل، ونعرف أن الواحد منا يحب ابنه لأنه بعض منه. وعلى ذلك فهذا القول جاء لتقديم الألفة. وهناك من يقول : إن حواء خلقت مثل آدم فلماذا جاء ذكر آدم ولم يأت بذكر حواء؟

ونقول : إن آدم أعطى الصورة فى خلق الإنسان من طين، لأن آدم هو الرسول وهو المسجود له. ونعلم أن المرأة دائما مبنية على الستر. ومثال ذلك نجد الفلاح فى مصر لا يقول : زوجتى، بل يقول : « الجماعة » أو « الأولاد » أو يقول : « أهلى » ولا يذكر اسم الزوجة أبداً.

والحق يقول هنا : « وجعل منها »، فإن كانت مخلوقة من الضلع فـ « مِنْ »

تبعيضية، وإن كانت مخلوقة مثل آدم تكون « مِنْ » بيانية، أى من جنسها، مثلها مثلما يقول ربنا :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة الجمعة)

أى الرسول من جنسنا البشرى ليكون إلف المبلغ عن الله، والمبلغ عن الله واحدا منا ونكون مستأنسين به، ولذلك قلنا : إن اختيار الله للرسول صلى الله عليه وسلم من البشر فيه رد على من أرادوا أن يكون الرسول من جنس آخر غير البشر، فقال الحق على ألسنتهم :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ويأتى الرد عليهم :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ثم لو كان الرسول من جنس الملائكة فكيف كانوا يرونه على حقيقته ؟ كان لابد أن يخلقه الله على هيئة الإنسان.

ويتابع سبحانه :

﴿ فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً ﴾

و« تغشاها » تعبير مهذب عن عملية الجماع فى الوظيفة الجنسية بين الزوج والزوجة، والغشاء هو الغطاء، وجعل الله الجماع من أجل التناسل ليبث منهما رجالاً كثيراً ونساء.

والمعنى هنا أنها حملت الجنين لفترة وهي لا تدرى أنها حامل، لأن نمو الجنين بطىء بطىء لا تشعر الأم به.

﴿ فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة الأعراف)

ومرت به، مقصود بها أنها تتحرك حركة حياتها قياماً وقعوداً إلى أن تثقل وتشعر بالحمل في شهوره الأخيرة.

وهنا عرف الزوج أن هناك حملا ورفع الاثنان أيديهما بالدعاء لله عز وجل أن يكون الولد صالحاً بالتكوين البدنى وصالحاً للقيام بقيم المنهج.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة الأعراف)

أى أن الذكورة قد انفصلت عن الأنوثة، وصار الذكر يسكن عند الأنثى.

وهكذا كان الأمر الخاص بآدم، ثم جاء الكلام للذرية، وخصوصا أن حواء كانت تحمل بذكر وأنثى، وآدم وحواء وأولادهما هم أصل التواجد البشرى وأصل التوالد.

والقرآن قد يتكلم في موضوعات تبدو متباعدة. لكنها تضم قيماً ذات نسق فريد، فنجد الحق يتكلم فى أمر ثم يتكلم فى آخر، مثل قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

ولم يأت بسيرة البر هنا، بل تكلم بالبر والبحر ثم انتقل إلى الحديث عن مجيء الموت، وأيضاً انظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

هنا يوصي الحق الإنسان بوالديه، بالأب وبالأم، ثم يتابع:

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

ولم تأت سيرة الرجل بل كل الحيثيات للأم.

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

ويروى أن هذه الآية قد نزلت في « قُصَيّ » وهو جد من أجداده صلى الله عليه وسلم، فقد طلب قُصَيّ من الله أن يعطى له الذرية الصالحة، فلما أعطاه ربنا الذرية الصالحة سماها بأسماء العبيد، فلم يقل: عبدالله، أو عبدالرحمن، بل قال: عبد مناف، عبدالدار، عبدالعزى. وجعل لله شركاء في التسمية، ولهذا جاء قول الحق: « جعلا له شركاء فيما آتاهما »؛ ليدلنا على أن الإنسان في أضعف أحواله، أي حينما يكون ضعيفاً عن استقبال الأحداث، يخطر بباله ربنا؛ لأنه يحب أن يسلم نفسه لمن يعطى له ما يريده، وبعد أن ينال مطلبه ينسى، ولذلك يقول الحق:

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إذن فائدة الضر أنه يجعلنا نلجأ إلى ربنا، ولذلك نجد الإنسان أحسن ما يكون ذكراً لله وتسبيحا لله حينما يكون فى الشدة وفى المرض، ولذلك لو قدر المريض نعمة الله عليه فى مرضه وشدته، لا أقول : إنه قد يحب أن يستطيل مدة المرض والشدة. لا، بل عليه فقط ألا يضجر وأن يلجأ إلى ربه ويدعوه. وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حينما قال: ﴿ اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين، وأنت ربى. إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدوّ ملّكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو يحل علىّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك ﴾ (١)

والإنسان ساعة يوجد فى المرض عليه أن يعرف النعمة فيه، فهو فى كل حركة من حركاته يذكر الله، وكما تخمد فيه طاقات الاندفاعات الشهوانية، يمتلىء بإيجابيات علوية، ولذلك نجد الحديث القدسى يقول فيه ربنا سبحانه وتعالى :

﴿ يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى، قال : وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى ، قال : يا رب . كيف أطعمك، وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان، فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى ، قال: يارب . كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى ﴾ (٢)

إذن ماذا عن حال مريض يستشعر أن ربه عنده، ويكون فى المرض مع المنعم، وفى الصحة مع النعمة.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام.
(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى باب فضل عيادة المريض.

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ومعنى هذا أن ربنا تبارك وتعالى ينزه نفسه عما يقول فيه المبطلون ويشركون معه ما يزعمون من آلهة. ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾

أيشركون فى عبادة الله من لا يخلقون شيئاً ، وهم أنفسهم مخلوقون لله ، إن من أشركوا بالله الأصنام فعلوا ذلك بالوهم وتنازلوا عن العقل ، وكان الواجب أن يكونوا عقلاء فلا يتخذون من الأصنام آلهة.

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يُخلقون ﴾

ولذلك فإن هناك آية أخرى تفضح زعمهم يقول فيها الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

ونعلم أن البشر فى المعامل قد عرفوا العجز عن خلق خلية واحدة وهى التى لا ترى بالعين المجردة ، ولذلك أوضح الحق أن المسألة ليست أمر خلق ، بل إن الذباب لو وقع على طعام إنسان وأخذ على جناحه أو فى خرطومه شيئاً ، لن يستطيع أحد أن يسترد المأخوذ منه ، فقد ضعف الطالب والمطلوب.

والخلق - كما نعلم - أول مرتبة من مراتب القدرة ، فإذا كانت الأصنام التى اتخذها هؤلاء شركاء لا تخلق شيئاً بإقرارهم هم ، فكيف يعبدونها ؟ إنها لا تخلق شيئاً بدليل أنها لا تتناسل. بل إذا أراد العابدون أن يزيدوا صنماً صنعه العابدون بأنفسهم. ونلحظ أن الحق جاء هنا بالقول : « أيشركون » بصيغة تعجب ، والتعجب ينشأ عن إنكار ما به الاستفهام ، أى تعجب منكراً على وفق الطباع العادية ، مثلما

يقول لنا :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

أى قولوا لنا ما الطريقة التى بها تكفرون بالله وتسترون وجوده، مع هذه الآيات البينات الواضحات ؟ فكأن ذلك أمر عجب يدعو أهل الحق للدهشة والاستغراب والإنكار الشديد، وحينما يتكلم الحق بإنكار شىء لأنه أمر عجيب، يوجه الكلام مرة إليهم، ومرة أخرى يوجهه إلى غيرهم، مثل قوله هنا :

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ﴾

والكلام للمؤمنين لأنه يريد أن يعطى لقطتين فى الآية، اللقطة الأولى : أن ينكر ما فعله هؤلاء، وأن يزيد القوم الذين لم يفعلوا ثقة فى نفوسهم، وفرحة بمواقفهم الإيمانية، حيث لم يكونوا مثل هؤلاء.

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ﴾

وفى الآية الكريمة وقفة لفظية فى الأسلوب العربى نفسه قد تثير عند البعض إشكالا، فى قوله تعالى : « ما لا يخلق شيئاً ». و« ما » تعنى الذى لم يخلق شيئاً، و« يخلق » هنا للمفرد، وسبحانه وتعالى جعل للمفرد هنا عمل الجمع فقال :

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً ﴾

وأقول : إن الذى يقف هذه الوقفة، ويلاحظ هذا الملحظ إنسان سطحى الثقافة بالعربية، لأنه لا يعلم أن « ما » و« من » و« الـ » تطلق على المفرد والمفردة، وعلى المثنى والمثناة، وعلى جمع الذكور وجمع الإناث، فتقول : جاءنى من أكرمته، وجاءتني من أكرمتها، وجاءنى من أكرمتهما، وجاءت من أكرمتهما، وجاء من أكرمتهم وجاء من أكرمتهن.

وكذلك « ما ». إذن فقول الحق : « ما لا يخلق » فى ظاهرها مفرد، ولكن اللفظ

يطلق على المفرد والجماعة؛ لذلك جاء في الأمر الثاني وراعى الجماعة، إذن « يخلق » للمفرد، و« هم يخلقون » للجمع لأن قوله : « ما » صالح للجميع أي للمفرد وللمثنى وللجمع وللمذكر وللمؤنث.

ومثال ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة محمد)

وسبحانه قال هنا : « ومنهم من يستمع إليك »، ولم يقل : « حتى إذا خرج من عندك » بل قال : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا » أي أنه جاء بالجماعة، فإذا رأيت ذلك في « ما » و« من » و« الـ » فاعلم أن هذه الألفاظ يستوى فيها المفرد والمفردة والمثنى والمثناة وجمع الذكور وجمع الإناث. ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون﴾.

وهنا في هذه الآية وقفة لغوية أخرى في قوله : «هم» وهي لا تطلق إلا على جماعة العقلاء، فكيف يطلق على الأصنام « هم » وليست من العقلاء ؟ وأقول : إن الحق سبحانه وتعالى لما علم أنهم يعتقدون أنها تضر، وأنها تنفع، فقد تكلم معهم على وفق ما يعتقدون، لكي يرتقي معهم في رد الإنكار لكل ما يستحق الإنكار. فأول مرحلة عرفهم أن الأصنام لا تخلق، وثاني مرحلة عرفهم أنهم هم أنفسهم مخلوقون والأصنام لا تقدر على نصرهم، إذن فهم معطلون من كل ناحية؛ لأنهم لا يخلقون. وهذا أول عجز، ومن ناحية أخرى أنهم يُخْلَقون وهذا عجز آخر، لكن بعد هذا العجز الأول والعجز الثاني فهل هم قادرون على نصر غيرهم ؟ ها هو ذا سبحانه يترقى في الحوار معهم ترقية أخرى فيقول :

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾

إذن فلا أحد من الأصنـــام قادر على أن ينصر نفسه أو يضمن نصر غيره.